د٠ هدى عبدالعزيز العنزي (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين أنزل القرآن هداية – لا شك ولا ريب فيها – للمتقين الذين ذكر من صفاتهم بقوله سبحانه : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (البقرة : ٣)، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين الذي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، أما بعد ...

فعندما تأملت قضية الصراع الأزلي بين آدم وذريته من جانب ، وإبليس وذريته من جانب آخر فوجدتها تتمثل في رغبة لدى آدم وبنيه في العودة إلى بيتهم الأول الجنة، تواجهها محاولات جادة من إبليس وأتباعه للحيلولة دون تلك العودة ، وانقدح في ذهني أن العودة إلى ذلك البيت مرهونة بما يعتقده بنو آدم ، وبما يقدمونه ويبذلونه.

ومن هنا فإنني أنظر إلى مسألة البذل والعطاء والإنفاق على أنها مسألة لها دورها في الوجود الإنساني تستحق دراسة جادة ، خصوصا إذا تأملنا قول الله عز وجل : [وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين] (المنافقون:١٠) ، فإنه يتبين لنا أن أول مسألة يندم عليها الإنسان عند حضور الأجل ، ويتمنى أن يؤخر ويؤجل قبض روحه حتى يؤديها هي التصدق، والإنفاق قبل غيرها من الأعمال الصالحة.

ومن خلال هذا وذاك شعرت أن مسألة الإنفاق بحاجة إلى دراسة جادة توضح أبعاد هذا الموضوع ، وتسبر غوره، نقف من خلالها على منهج القرآن في

(*) رئيس قسم في وزارة التربية بالكويت.

عرض هذا الموضوع بكافة أبعاده فعزمت على الكتابة فيه متوكلة على الله، معتمدة عليه ، وأسأله التوفيق.

للإنفاق في سبيل الله وجوهٌ متعددةٌ؛ منها: بناء المساجد، وكفالة الأيتام، وبناء المدارس الإسلامية، والجهاد في سبيل الله، وسقيا الماء، وإفطار الصائمين، وإغاثة الناس، والأوقاف الإسلامية؛ وهي من الصدقة الجارية التي يتحصّل أجرها في حياة المتصدّق ويستمرّ بعد موته، ومن الإنفاق أيضاً: نشر الكتب الإسلامية باللغات المختلفة، وبناء المراكز الصحيّة التي تهدف إلى تقديم العلاج لفقراء المسلمين ومساكينهم .

Spending for the sake of Allah has many faces. These include: building mosques, sponsoring orphans, building Islamic schools, jihad for the sake of God, watering water, breakfast fasting people, relief for people, and Islamic endowments. It is from ongoing charity that is paid in the life of the charitable person and continues after his death, and also from spending: publishing Islamic books in different languages, and building health centers that aim to provide treatment to the poor and needy Muslims.

الفصل الأول

المبحث الأول : تعريف الإنفاق في اللغة والاصطلاح

أولا : الإنفاق في اللغة :

جاء الإنفاق في كتب اللغة في إطار الجذر "نفق" ، وقد أورد أهل اللغة معاني لغوية عدة له ، فذكر ابن فارس (٢) في معجمه أن "النون والفاء والقاف أصلان صحيحان يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه ، والآخر على إخفاء شيء وإغماضة " (٣) ، وأضاف الفيروزآبادي (٤) معنى مقاربا فقال: "وعلى مضي شيء ونفاده" (٥) ، وإلى هذين الأصلين أو الثلاثة – باعتبار إضافة الفيروزآبادي – تعود معاني الجذر "نفق"، وهذا بيانها: الأصل الأول : "نفق" بمعنى الانقطاع والذهاب، ويقاربه المضي والنفاد، ومنه قوله تعالى: [وإذا لأمسكتم خشية الإنفاق] (الإسراء:١٠٠) أي: خشية الفناء والنفاد، وهذا الانقطاع والذهاب؛ أو المضي والنفاد يكون بعدة أمور: ١. النقصان الطبيعي للأشياء مثل: نقصان الأموال والدراهم والطعام وسائر الأشياء؛ بسبب استهلاكها، نحو " نفق ماله ودرهمه وطعامه ... نقص وقل، وقيل فني وذهب " (٦) ، ومنه "نفق الشيء: نفد يقال: نفق الزاد، ونفقت الدراهم "(٢)، "نفقت الدراهم تفقا ... نفدت" (١). ٢. الموت : وهو على وجه المجاز ، ومنه موت المخلوقات ، نحو " نفق الرجل وكذا الدابة كالفرس والبغل وسائر البهائم ، ينفق نفوقا بالضم : ماتا " (١) ، "ونفقت الدابة قوقا : ماتت "[(١)].

الرواج : أي رواج السلع بشكل خاص، ورواج السوق بشكل عام، وكذلك كثرة الخطاب للمرأة، وهذا بيان ذلك: رواج السلع: "نفق البيع نفاقا: راج، وتفقت السلعة: تنفق نفاقا – بالفتح – غلت ورغب فيها، وأنفقها هو ونقفها، وفي حديث الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، قال رسول الله : (المسبل

---

(١) كتاب المصباح المنير .ج ٢ ص ٢٨٩ .

والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)(١١)، المنفق – بالتشديد – من النفاق، وهو ضد الكساد "(١٢)، ولعل رواج السلع؛ لأنها قلت في السوق، فكثر الطلب عليها فراجت، وهذا ما يجعل الرواج يلتقي بالأصل الأول ، أي المضي والنفاد ، " وكذلك السلعة تنفق إذا غلت ورغب فيها، ونفق الدرهم نفاقا كذلك ... كأنه قل فرغب فيه " (١٣).رواج السوق: والمقصود قيامها وانعقادها، نحو" أنفق القوم، ونفقت سوقهم.

أي: راجت" (١٤) ، " ونفقت السوق قامت " (١٥) . رواج النساء: أي كثرة الخطاب لهن نحو: "نفقت الأم تنفق نفاقا إذا كثر خطابها" (١٦)، و"الأفق من النساء التي تنفق عند الرجال فتحظى عندهم " (١٧). ٤- الانتشار : كأن الشيء تناثر فقل وذهب، وجاء هذا التعبير في أوبار الإبل، وتقشر الجروح، نحو[١]" أنفقت الإبل: إذا انتشرت ... أوبارها سمنا، أي: عن سمن" (١٨) ، وفي لسان العرب: "أنفقت الإبل؛ إذا انتثرت أوبارها عن سمن، أي: سيلت أوبارها من السمن[٢].

هذا عن أوبار الإبل، أما عن الجروح، فقد قالوا : " نفق الجرح: تقشر " (٢٠)، "ونفق الجرح ؛ إذا تقشر" (٢١) .

وخلاصة القول: إن المعاني السابقة جميعها تعود إلى أصل واحد؛ فيه معنى الانقطاع والذهاب، أو المضي والنفاد. الأصل الثاني : "نفق" بمعنى: الإخفاء والإغماض:

وجاء عن هذا الأصل معنيان : النفق والنفاق ، والأول سبب تسمية الثاني، والنفق هو : "سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر " (٢٢) ، ومنه قوله تعالى: {فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء)

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك.

(٢) المعجم الوسيط ص٩٥١.

(الأنعام:٣٥)، وواضح أن النفق يصلح للاختفاء، أو أن من يدخله يختفي، ومن هذه المعاني جاءت تسمية المنافق منافقا، ذلك أن في تسمية المنافق منافقا ثلاثة أقوال، أحدها: أنه سمي به؛ لأنه يستر كفره ويغيبه، فشبه بالذي يدخل النفق – وهو السرب – يستتر فيه. والثاني: أنه نافق كاليربوع (١٣) ، فشبه به ؛ لأنه يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي دخل فيه. والثالث : أنه سمي به لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيها لليربوع ، فكذلك المنافق ، ظاهره إيمان ، وباطنه كفر" (٢٤) . وقد ذكر ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أنه "يمكن جمع الأصلين في أصل واحد وهو الخروج " (٢٩)، أي أن ذهاب الأشياء وانقطاعها ومضيها ونفادها؛ يكون بخروجها من يد صاحبها مثلا، وكذلك النفق الذي يؤدي إلي مخرج آخر ، والنفاق الذي هو دخول في الإيمان وخروج منه في نفس الوقت . [١]

وختاما للحديث في هذه المسألة يسوق الباحث الاشتقاق اللفظي لكلمتي "الإنفاق والنفقة"، الإنفاق : مصدر الفعل الرباعي "أنفق"، زيدت به الهمزة على الأصل "نفق" [٢].

ثانيا : الإنفاق في الاصطلاح :

أورد العلماء تعريفات عدة متقاربة للإنفاق والنفقة، بينها بعض التفاوت: الأول : ذكر المناوي (٢٨) في التوقيف : النفقة "شرعا ما يلزم المرء صرفه لمن عليه مؤونته من زوجته أو قته (٩) أو دابته" (٣٠) ، وعرف الإنفاق بأنه : "صرف المال في الحاجة" (٣١). الثاني : جاء في معجم لغة الفقهاء : "الإنفاق: صرف المال في الحاجات الضرورية وغيرها، ومنه: إنفاق الزوج على زوجته" (٣٢). أما النفقة فهي : "ما ينفق من الدراهم وغيرها، وما يجب من المال لتأمين الضرورات للبقاء" (٣٣). الثالث : وذكر الفيروزآبادي : "النفقة: ما تنفقه من

(١) فتح القدير للشوكاني.

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة تأليف عبدالرحمن محمد عوض الجزيري.

الدراهم ونحوها " (٣٤) ، وإلى هذا الفهم مال الأصفهاني (٣٥)، فذكر " أن الإنفاق قد يكون في المال وفي غيره، وقد يكون واجبا وتطوعًا" (٣٦). الرابع : وفي تهذيب اللغة للأزهري (٣٧) قال : "النفقة: ما أنفقت واستنفقت على العيال وعلى نفسك".

الخامس : وفصل سعدي أبو جيب (٣٩) القول في النفقة والإنفاق في القاموس الفقهي فقال: "الإنفاق: بذل المال ونحوه، والإنفاق: الفقر والإملاق" (٤٠) ، واستدل بقوله تعالى: (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا) (الإسراء:١٠٠)، وقال : الإنفاق : "عبارة عن صرف المال وخرجه" (٤١). أما عن النفقة فأورد عدة تعريفات لها، فالنفقة: "ما ينفق من الدراهم وغيرها، والزاد، وما ينفقه الإنسان على عياله، وما يفرض للزوجة على زوجها من مال للطعام والكساء والسكنى والحضانة ونحوها، وهي في الشرع: الإدرار على شيء بما فيه بقاؤه" (٢). السادس[1] : وفي المعجم الوسيط : "الإنفاق: بذل المال ونحوه؛ في وجه من وجوه الخير " (٤٣). السابع : وذكر الدكتور وهبة الزحيلي (٤٤) أن النفقة شرعا : "هي كفاية من يمونه من الطعام والكسوة والسكنى. وعرفا: هي الطعام، والطعام يشمل: الخبز، والأدم، والشرب ، والكسوة السترة والغطاء" .

والسكنى: تشمل: البيت ومتاعه ومرافقه؛ من ثمن الماء، ودهن المصباح، وآلة التنظيف والخدمة ونحوها، بحسب العرف (٤٥) ، وعرفها الجزيري (٤٦) على أنها "إخراج الشخص مؤنة من تجب عليه نفقته من خبز وأدم وكسوة ومسكن وما يتبع ذلك من ثمن ماء ودهن ومصباح" (٤١) ، وقريبا من تعريفهما ذكر الصنعاني (٦٨) في كتابه "سبل السلام" أن المراد بالنفقة: "الشيء الذي يبذله الإنسان فيما يحتاجه – هو أو غيره من الطعام والشراب وغيرهما" (٤٩). وبالتأمل

(١) الموسوعة الفقهية وزارة الأوقاف.

في هذه التعريفات السابقة يتبين لنا عدة أمور: ١. بعضها خص الإنفاق في المال فقط كالتعريف الأول والثاني، وبعضها جعله في المال ونحوه كالتعريف الخامس والسادس ، وبعضها جعله في المال وغيره ؛ مصرحا بذلك، كالتعريف الثالث ، أو تاركا الأمر على إطلاقه كالتعريف الرابع . ٢. وبعضها خص الإنفاق في الحاجة كالتعريف الأول، وبعضها جعله على الحاجات الضرورية وغيرها كالتعريف الثاني، وبعضها قصره على وجوه الخير كالتعريف السادس. ٣. بعض التعريفات أشارت في ثناياها إلى معانٍ أخرى للإنفاق كالفقر والإملاق. ٤. تعريفات النفقة دارت على أمرين الأول : النفقة على من يعول بشكل عام .

والثاني : النفقة التي تفرض للزوجة على زوجها، مع تفصيل ماهية هذه النفقة بلا كثير خلاف.

وحتى يزداد الأمر وضوحا ؛ وقبل حسم هذه المسائل والخروج بتعريف جامع، أو وضع تعريف جديد، يرى الباحث أن يستعرض وجوه الإنفاق التي وردت في القرآن الكريم ؛ وإليك بيانها (٥٠) : ١. الزكاة : فقد وردت النفقة بمعنى فرض الزكاة في قوله تعالى: [ومما رزقناهم ينفقون] (البقرة:٣) أي: يزكون ويتصدقون. ٢- الصدقة : وقد جاءت النفقة بمعنى التطوع في الصدقات في قوله تعالى: [الذين ينفقون في السراء والضراء] (آل عمران: ١٣٩)، وقوله تعالى : [وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية] (الرعد:٢٢)، وقوله تعالى: [وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه] (الحديد:٧). ٣- البذل في نصرة الدين : وقد جاءت النفقة بمعنى الإنفاق في الجهاد في قوله تعالى: [وأنفقوا في سبيل الله] (البقرة:١٩٥)، يعني في طاعة الله ، وكذلك قوله تعالى: [لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقائل] (الحديد: ١٠)، يعني من بذل في نصرة الدين. ٤- النفقة على الزوجات: وقد جاءت النفقة بمعنى الإنفاق على العيال والأهل فقال سبحانه: [وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن] (الطلاق:٦) ، وقال سبحانه : [لينفق ذو سعة من سعته] (الطلاق:٧). ٥-عمارة الدنيا : وقد وردت النفقة بمعنى الإنفاق في عمارة الدنيا

والندم عليها فقال سبحانه وتعالى : [فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها] (الكهف: ٤٢). ٦- الفقر والإملاق : وقد جاء الإنفاق بمعنى الفقر والإملاق في قوله تعالى : [وإذا الأمسكتم خشية الإنفاق] (الإسراء:١٠٠)، كما مر سابقا (٢) ٧- الرزق : وقد جاء الإنفاق بمعنى رزق الخالق المخلوقاته في قوله جل وعلا : [لا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء] (المائدة:٦٤)، أي: يرزق كيف يشاء. ٨- الإنفاق لتقوية الكفر والصد عن سبيل الله : فقد جاء الإنفاق بمعنى نفقة اليهود أموالهم تقوية للكفر، فقال سبحانه : [كالذي ينفق ماله رئاء الناس] (البقرة: ٢٦٤)، أما في الصد عن سبيل الله فقال تعالى : {إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله (الأنفال:٣) [١].

وبعد هذا العرض يتبين أن الإنفاق والنفقة جاءا في القرآن على معان عدة؛ مما يستدعي مراعاة ذلك في التعريف. وبناء على ما سبق من التعريفات، وما ورد من وجوه الإنفاق في القرآن ، اختار الباحث تعريفا يجمع بين التعريفات السابقة ، مراعيا المعاني التي وردت في الآيات القرآنية ، فالإنفاق على ضوء ذلك هو : بذل المال وغيره في وجه من الوجوه . والملاحظ على هذا التعريف أنه : ١- جمع بين بذل المال وبذل غير المال. ٢- لم يقصر الأمر على الحاجة، أو على وجوه الخير فقط، بل تركها مطلقة في أي وجه من الوجوه. ٣- خص المال بالذكر دون غيره مما يبذل ، لكون أكثر البذل منه ، وأكثر الآيات عليه ، وأول ما يتبادر إلى الذهن هو[٢].

المبحث الثاني : نظائر الإنفاق الواردة في القرآن

وفيه مبحثان : المبحث الأول : نظائر الإنفاق؛ المعنى والاشتقاق . المبحث الثاني: العلاقة بين الإنفاق و نظائره .

---

(١) كتاب المصباح المنير .ج ٢ ص ٢٨٩.

(٢) السابق، الصفحة نفسها .

نظائر الإنفاق المعنى والاشتقاق وردت ألفاظ أخرى في القرآن الكريم تحمل معنى الإنفاق، والتي يطلق عليها بعض العلماء النظائر (٢٣) ، ومن نظائر الإنفاق في القرآن ما يلي: ١. الأداء: وهو لغة : الإيصال، أي: "إيصال الشيء إلى الشيء، أو وصوله إليه من تلقاء نفسه".

واصطلاحا : "إيتاء ما استحق من دين ونحوه" .

ولقد جاءت مشتقات "أدى" في ستة مواضع في القرآن الكريم ، منها: أربعة مواضع في أداء الأمانات ، وموضع واحد في أداء ما وقع على الإنسان من التزامات، وأما الموضع السادس فبعيد عن الإنفاق[١] .

٢. الإكرام: وهو لغة: "أن يوصل إلى الإنسان إكرام، أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة"، واصطلاحا: "العطية للفاعل في أعقاب فعل نافع" .

وجاءت مشتقات "كرم" في سبعة وأربعين موضعا في القرآن الكريم ، ما جاء منها بمعنى إكرام الإنسان لأخيه الإنسان موضعان.

٣. " الإطعام: وهو لغة: التذوق" .

واصطلاحا: "الطعام اسم جامع لكل ما يؤكل"، (٩٠) "وربما خص بالطعام البر".

وجاءت مشتقات "طعم" في ثمانية وأربعين موضعا ، ما له علاقة بالإنفاق سبعة عشر موضعا، تتحدث عن الإطعام الدائر بين الخلق ، وستة مواضع ، تتعلق بالإطعام الصادر من الله عز وجل .

٤. البسط: وهو لغة: "النشر والتوسع، وهو نقيض القبض".

واصطلاحا: "امتداد الشيء في عرض، أو غير عرض".

ووردت مشتقات "بسط" في القرآن في أربعة وعشرين موضعا ، منها خمسة عشر موضعا تتحدث عن بسط الله عز وجل الرزق، والأرض، وبسطة العلم، والجسم .

---

(١) مفردات الفاظ القرآن مؤلف : أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل .

ومنها ثمانية مواضع تتحدث عن بسط اليد، سواء للأذى أو للإنفاق أو للماء وسواء كان البسط من الملائكة أو من الخلق، وموضع واحد عن كلب أهل الكهف، وبسطه يديه. الزكاة: وهي في اللغة من "الزكاء والنماء و الزيادة" (١٣) ، ويقال: "زكا الزرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة" (٦٤)، و"سميت الزكاة زكاة لأنها سبب زيادة.

ولقد جاءت مشتقات "زكي" في القرآن في تسعة وخمسين موضعا ، جاء منها بلفظ "الزكاة" اثنان وثلاثون موضعا، منها: موضعان بمعنى الطهارة والأفضلية، أما باقي المشتقات فتتحدث عن تطهير النفس ، سواء كان فعليا، أو ادعاء، ولفظ واحد بمعنى أفضل، مشيرا إلى الطعام . انظر جدول رقم (٥). ٦. التصدق: وهو لغة: "ما تصدقت به على الفقراء" (١٧)، واصطلاحا: "ما يتصدق به المرء عن نفسه و ماله" (١٨).

ولقد جاءت مشتقات "صدق" في أربعة و عشرين موضعا، كلها تشير إلى الصدقة بمعنى الإنفاق . ٧. العطاء : وهو لغة: "التناول باليد" (١٩). واصطلاحا: "ما يعطاه الجنود ونحوهم من بيت المال سنويا" (٧٠) .

ولقد جاءت مشتقات "عطا" في القرآن؛ في ثلاثة عشر موضعا، منها: خمسة مواضع تتحدث عن العطاء البشري، والمواضيع الباقية تتحدث عن عطاء الله، سواء في الدنيا أو في الآخرة . ٨. التقديم : وهو لغة : ضد التأخير (١) ، وهو بمعنى التسليف (٧٢) ، ويأتي التقديم ضد المنع في كتب الفقه (١٣)، فقد بوب مسلم (٧٦) في صحيحه ب "باب في تقديم الزكاة ومنعها" (١٥). ويقترح الباحث تعريفا اصطلاحيا للتقديم على ضوء ما تقدم بأنه: تسليف الخير الله عز وجل في وجه من الوجوه المشروعة بدليل[١].

* *

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي، ج٥، ص١٠٤.

الفصل الثاني

المبحث الأول : العلاقة بين الإنفاق ونظائره

تتضح العلاقة بين الإنفاق ونظائره من خلال النقاط الآتية: ١. ذكر الباحث أن في الإنفاق معنى الخروج أي: خروج الشيء من يد صاحبه، وانتقال الشيء من يد صاحبه إلى غيره ، وهذا قاسم مشترك بين الإنفاق وباقي نظائره؛ حيث تجد ذلك المعنى واضحا في الأداء، والإكرام، والإطعام، والبسط، والعطاء، والتقديم، والزكاة ، والهبة، والقرض. ٢ ذكر الباحث أن الإنفاق فيه معنى الرواج والانتشار الناتج عن النقص، فالذي يتبادر إلى الذهن أن النقصان سيتلوه نفاد ، ولكن الإنفاق وهو نقصان وذهاب؛ إلا أنه يؤدي إلى رواج وانتشار وتلمس هذا المعنى تصريحا في بعض النظائر، فالزكاة نماء، والإيتاء في بعض معانيه النماء، "يقال: نخل ذو إتا؛ أي: نماء " (١٦) ، والقرض مسترد ، والتقديم والقربان ، تقدمه وتقربه، تنتظر مغنما أو تأمل في نتيجة ، والأداء فيه معنى أداء حق سابق للآخرين، أي أن المنفعة سابقة. وتلمسه ضمنا في نظائر أخرى كالإكرام والإطعام والبسط ، ولعل عدم التحقق التام الصفة الرواج على سائر النظائر، لأن أمر الرواج ليس على إطلاقه، فهناك إنفاق ثمرته الندم والحسرة ، وهو ما أنفق في الصد عن سبيل الله . ٣. ذكر الباحث أن الإنفاق لا يقتصر على إنفاق المال فقط ، وكذلك نظائر الإنفاق تجمع بين المال وغيره، فالزكاة ، والهبة، والعطاء ، والقرض ، والإكرام، وسائر النظائر تكون في المال وتكون في غيره. ٤. ذكر الباحث أن الإنفاق لا يقتصر على الإنفاق في وجوه الخير فقط ، فقد يكون في وجوه أخرى ، وكذلك نظائره لا تقتصر على وجوه الخير فقط، وإن كان بعضها كالزكاة ، اصطلح على دلالتها على الفريضة المكتوبة. الإنفاق هو "إخراج المال من الملك" (١٩) ، في حين أن هذه الصفة لا تتوفر في باقي النظائر بنفس الدرجة ، "فالإعطاء لا يقتضى إخراج المعطي من الملك ، وذلك أنك تعطي زيدا

المال ليشترى لك الشيء ، وتعطيه الثوب ليخيطه لك ، ولا يخرج عن ملكك بذلك" (١٩) . أما إذا قارنا بين الإعطاء والإيتاء ، فإننا نلمس "في الإعطاء دليل التمليك ، دون الإيتاء ، ويؤيده قوله تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر) (الكوثر:١)، فإنه كان له منع من شاء منه كالمالك للملك ، وأما القرآن فحيث إن أمته مشاركون له في فوائده ، ولم يكن له منعهم منه، فقال: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) (الحجر:٨٧)" (١٧) .

إضافة إلى العلاقة السابقة ، فهناك علاقات بين نظائر الإنفاق بعضها مع بعض ، وهذه بعض الإشارات التي تبين ذلك: "الإعطاء: هو اتصال الشيء إلى الأخذ له ، ألا ترى أنك تعطي زيدا المال ليرده إلى عمرو، وتعطيه ليتجر لك فيه. [١] والهبة تقتضى التمليك ، فإذا وهبته له؛ فقد ملكته إياه" (١٨) . ٢. "الزكاة لا تكون إلا فرضا، والصدقة قد تكون فرضا وقد تكون نفلا"[٢].

المنفق: غايات الإنفاق المنفق الحديث في هذا المبحث يتناول من يقع منه الإنفاق ، وبالتأمل في الآيات التي تحدثت عن الإنفاق بألفاظه الصريحة ، نجد أن منها التي تتحدث عن إنفاق الخالق، ومنها التي تتحدث عن إنفاق المخلوق ، وأفرد الباحث لكلٍّ مطلبا خاصا . المطلب الأول : إنفاق الخالق :

ورد ذكر الإنفاق منسوبا إلى الله سبحانه وتعالى بلفظ الإنفاق في آية واحدة، وذلك في قوله تعالى: [بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء] (المائدة: ٦٤)، فعندما تجرأ اليهود في حديثهم عن الله الحليم، كعادتهم دوما في الإساءة حتى للخالق، فوصفوه – جل شأنه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا– بأن يده مغلولة وذلك " لما ضيق عليهم بتكذيبهم النبي لا بعد أن كانوا أكثر الناس مالا " (٩٢)، ذكر القرآن ذلك الموقف منهم فقال سبحانه: [وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا

(١) المبسوط لشمس الأئمة أبي بكر محمد بن أبى سهل.

(٢) معجم لغة الفقهاء لقلعه جي ص ٩٣.

بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء] (المائدة:٦٤)، "ورد الله عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه فقال: (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا)"(٩٣)، " فالتصقت بهم هذه الصفة، ووقع عليهم اللعن والطرد من رحمة الله، وبعد الرد جاء التصحيح – لهذا التصور الفاسد السقيم – يصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب ، (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) ، وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان، شاهدة باليد المبسوطة والفضل الغامر والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان، ولكن يهود لا تراها ؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم وبالكنود وبالجحود وبالبذاءة حتى في حق الله" (٩٤). وتبدو بذاءتهم وسوء أدبهم واضحة جلية؛ فقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه – وهو البخل- بلفظه المباشر؛ فاختاروا ألفاظا أشد وقاحة وتهجما وكفرا؛ فقالوا: (الله مغلولة)" (٩٥) ، فإذا كان هذا حالهم مع إلههم ، فكيف يكون حالهم مع غيرهم من خلق الله؟! إذن: "ليس الأمر كما يزعم هؤلاء اليهود؛ بل هو سبحانه في غاية ما يكون الجود والغنى ... يرزق كما يريد، إن شاء وسع في العطاء ، وإن شاء ضيقه، فعطاؤه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التي شاء أن يقوم عليها نظام الدنيا والآخرة".

أما الآيات التي تعرضت لعطاء الله بغير لفظ الإنفاق فهي آيات كثيرة، عالجت أشكالا مختلفة من عطاياه سبحانه التي لا تحصى ولا تنفد .

ويسجل الباحث بداية ؛ أن نعم الله وعطاياه لا يمكن حصرها من قبل بشر، وهذا بصريح قوله سبحانه في كتابه الكريم: [وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها] (إبراهيم: ٣٤)، ولكنه يسوق أمثلة ، ويبين مسلمات ، ويدون ملاحظات ، ويحاول أن يقدم المسائل عبر نقاط محددة .

١- التكريم الإلهي لآدم وبنيه :

أكرم الله بني آدم "بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب ، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة" (٩٧) ، فقال سبحانه: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (الإسراء:٧٠)، فشرفهم وكرمهم "بخلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها" (٩٨)، حتى إن هذا التكريم أغاظ إبليس عليه اللعنة؛ فوقف يتبجح متحديا. وسرد الله سبحانه ذلك الموقف في القرآن، فقال تعالى مبينا موقف إبليس عليه اللعنة: (قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) (الإسراء:٦٢).

٢- البسط الإلهي للرزق :

جاءت الآيات كثيرة تتحدث عن بسط الله الرزق لعباده ، منها قوله تعالى: [إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر] (الإسراء:٣٠)، فهو "الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة" (٩٩) ، وهذا يضع أمامنا العديد من المسلمات: . جاء قوله تعالى : [الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم] (العنكبوت، ٩٢)، مسبوقا بقوله تعالى : [ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون] (العنكبوت، ٦١)، ومتبوعا بقوله تعالى: (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) (العنكبوت، ٩٣) "فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته"(١٠٠). "الأمر في

السراء والضراء يتبع قانونا ثابتا، ويرجع إلى مشيئة الله سبحانه، فهو الذي ينعم بالرحمة ويبتلي بالشدة ، ويبسط الرزق ويضيقه؛ وفق سنته وبمقتضى(١).

حكمته" (١٠١)، نفهم هذا من قوله سبحانه: [وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون * أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون] (الروم: ٣٦، ٣٧)؛ ولهذا "فلا داعي للفرح والبطر عند البسط، ولا لليأس والقنوط عند القبض" (١٠٣) . بسط الرزق وقبضه لا يدل على رضى ولا على غضب من الله، ولقد رد الله سبحانه على أصحاب الفهم المغلوط؛ الذين يتصورون أن بسط الرزق لشخص ما دليل على رضى الله عن هذا الشخص، وأن قبضه عن آخر دليل على غضبه عليه، فقال سبحانه ذاكرا تصورهم الخاطئ رادا عليه: [وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين * قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون] (سبأ:٣٥ ، ٣٦، ٣٧)، فقرر سبحانه بذلك " أن بسط الرزق وقبضه مسألة ، ورضاه وغضبه مسألة أخرى ، فقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب ، كما يغدقه على من هو عنه راض ، وقد يضيق الله على أهل الشر ، كما يضيق على أهل الخير ، وكل ذلك لحكمة ولغاية عنده سبحانه، فقد يغدق الله على أهل الشر استدراجا لهم ؛ ليزدادوا سوءا وبطرا وإفسادا .... وقد يحرمهم فيزدادوا شرا وفسوقا وجريمة ... وفي المقابل قد يغدق الله على أهل الخير؛ ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ... وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان وثقتهم بربهم ... وأيا ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه ... فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلا بذاتها ؛ على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله " "فضل

(١) تهذيب اللغة للأزهري .

الله في الآخرة بلا حساب وبلا حدود ولا قيود، أما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعلمه سبحانه من أن هؤلاء البشر ضعاف لا يملكون التوازن، ولا يحتملون إلا إلى حد.

[ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباد. خبير بصير] (الشورى:٢٧)، ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدرا محدودا بقدر ما يطيقون ، واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض، ويجتازون امتحانها، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام ؛ ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود، وأكدت الآية في ثناياها نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق مهما كثرت، بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير" (١٠٤).

٣- العطاء الإلهي للأنبياء خاصة وللخلق عامة : أولا : العطاء الإلهي للأنبياء خاصة :

تحدثت الآيات القرآنية عن عطاء الله للأنبياء بألفاظ العطاء في أكثر من موضع ، فقد ذكر سبحانه عطاءه لسيدنا محمد له في سورتي الكوثر والضحى.

والمتأمل فيهما يلاحظ أنه جاء ذكر العطاء في السورتين ردا على الحاقدين من شأنه (١٠) وقلل من شأنه في الأولى ، ومن شمت فيه لفتور الوحي فترة في الثانية ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تثبيتا لفؤاد النبي ، وهو يشق طريق الدعوة الله في وسط كل هذه الآلام. العطاء في السورتين يشير إلى عطاء الدنيا والآخرة، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، فذكر الطاهر ابن عاشور (١٠٩) في تفسيره لقوله تعالى: [إنا أعطيناك الكوثر] (الكوثر:١) وهو يعدد أغراض السورة بكاملها أنها "اشتملت على بشارة النبي بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة" (١٠٧) ، (١٠٨) وفي تفسيره.

قوله تعالى : [وللأخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى] (الضحى: ٤، ٥) ، بين أنه "يغلب لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن على الحياة

الآخرة وعلى الدار الآخرة واعتبر الآية الأولى تبشيرا للنبي بالخيرات الأبدية، واعتبر الآية الثانية وعدا واسع الشمول؛ لما أعطيه النبي و من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر، ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجا ، وما فتح على الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من أقطار الأرض شرقا وغربا".

كذلك ذكر الله عطاءه لنبيه سليمان –عليه السلام– بلفظ العطاء فقال سبحانه، بعد أن استعرض ما وهبه لنبيه من تسخير الريح والشياطين استجابة لطلبه: (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفي وحسن مآب) (ص: ٣٩ ، ٤٠)، فتأمل عظيم فضله سبحانه النبي يطلب بعد الاستغفار، والمولى يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، "ثم قيل له: إنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة، تعطي من تشاء كيف تشاء، وتمسك عمن تشاء قدر ما تشاء ... وذلك زيادة في الإكرام والمنة، ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قربي في الدنيا، وحسن مآب في الآخرة، وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضا والإنعام والتكريم" (١١٠).

ثانيا : العطاء للخلق عامة :

أما العطاء للخلق عامة، فقد جاءت الآيات تتحدث عن العطاء في الدنيا، وعن العطاء في الآخرة، فبالنسبة للأولى يقرر سبحانه : إن العطاء لا يقتصر على من يريد الآخرة فقط، دون من يريد الدنيا، بل هو الكلمة ما، فقال سبحانه: [كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا] (الإسراء:٢٠)، "فإن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله، سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاها، ومن يطلب الآخرة فيلقاها. وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه؛ فهو مطلق، تتوجه به المشيئة حيث تشاء".

إن الله "وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها، وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ؛ وأمده بما يناسب هذه الوظيفة،

ويعينه عليها " (١١٢) ، فقال سبحانه ؛ مبينا ذلك في إجابة موسى عليه السلام: [قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى] (طه: ٥٠).

أما بالنسبة للعطاء في الآخرة ، فيقرر سبحانه: إن " الذين سعدوا برحمة الله فهم في الجنة، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ... (إلا ما شاء ربك) من قدر ما مكثوا في النار قبل دخولهم الجنة، عطاء من الله – الذي شاء – غير مقطوع عنهم" (١١٣)، فقال عز وجل: (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) (هود:١٠٨). إن ما أعده الله للمتقين من نعيم مقيم في الجنة، هو جزاء منه سبحانه ، وهو الجزاء الكافي الوافي ، فقال جل وعلا: [جزاء من ربك عطاء حسابا] (النبأ: ٣٦) إن جزاء المؤمنين السعداء هبة منه وإحسان دائم غير مقطوع ... وأما الكافرون فجزاؤهم موافق لأعمالهم " (١١٤).

المبحث الثاني : إنفاق المخلوق :

سبق أن ذكرنا(١١٠) أن الإنفاق؛ جاء مصرحا به في القرآن؛ في ثلاثة وسبعين موضعا ، جاء ذكر الإنفاق منسوبا إلى الخالق عز وجل في موضع واحد منها وذلك في قوله سبحانه : [بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء] (المائدة:٦٤) ، كما ورد في المطلب السابق (١١٩).

أما باقي المواضع فقد تناولت إنفاق المخلوق، وخاصة البشر، فهم المنوط بهم التكليف. ولقد استعرضت هذه المواضع مسائل متعددة مما يقع منهم في مجال الإنفاق، فعالجت بعض الآيات الأغراض التي من أجلها يقدم الإنسان على الإنفاق، ويهدف إلى تحقيقها من ورائه ومنها : الإنفاق على مصالح الدنيا وأغراضها المعتادة والمتعددة ، مما تقوم به حياة الإنسان ، وذلك في مثل قوله تعالى: [فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها] (الكهف:٦٢). الإنفاق في سبيل الله، وفي الدعوة إليه، وابتغاء مرضاته ، ومن ذلك قوله عز وجل : [وما تنفقوا من

شيء في سبيل الله يوف إليكم] (الأنفال: ٦). الإنفاق في الصد عن سبيل الله، ومحاربة شرعه ، كما قال سبحانه مبينا هذا الصنف من البشر، ومستعرضا أحوالهم : [إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله] (الأنفال:٣٦). وجاءت آيات أخرى تعالج الحالات والكيفيات المختلفة، التي يقع بها الإنفاق.

مثل :

• الإنفاق في حالتي السر والعلن، كما قال سبحانه: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سيا وعلانية) (البقرة:٢٧٤). • الإنفاق في حالتي السراء والضراء ، كما في قوله تعالى: (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ) (آل عمران:١٣٤). • التباين بين الإنفاق من الطيب والإنفاق من الخبيث، ولقد أشار إليها سبحانه في قوله عز وجل: [يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد] (البقرة:٢٩٧). وعالجت الآيات أيضا مسألة الحث على الإنفاق بالأساليب الآتية :

الأمر المباشر بالإنفاق كما في الآية السابقة الذكر. الحث على الإنفاق ببيان فضله، كما في قوله سبحانه: [وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون] (البقرة:٢٧٢). الحث على الإنفاق بربطه بقضايا الإيمان والعبادات، كما في قوله عز وجل: [الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون] (البقرة:٣). الحث على الإنفاق بضرب الأمثال ، ومنها قوله سبحانه: [مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم] (البقرة:٢٦١). ومن القضايا التي تعرضت لها آيات الإنفاق –إضافة إلى ما سبق- مسألة الإنفاق.

المقبول وشروطه ، ومن الآيات الواردة في ذلك قوله عز وجل: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة:٢٦٢).

هذه بعض المسائل التي تناولتها آيات الإنفاق، فيما يتعلق بإنفاق المخلوق ، وفي المباحث التالية مزيد تفصيل.

غايات الإنفاق

للإنسان من وراء إنفاقه هدف و مقصد وغاية ، وباستعراض الآيات التي ورد فيها ذكر الإنفاق ، يتبين أن غايات الإنفاق من وجهة نظر الباحث ثلاث :

١- الإنفاق في مصالح الدنيا.

٢- الإنفاق من أجل المبادئ الفاضلة.

٣- الإنفاق من أجل المبادئ الضالة.

الإنفاق في مصالح الدنيا، يكون أحيانا من أجل المبادئ الفاضلة، وأحيانا من أجل المبادئ الضالة، وذلك حسب النية التي تجول في صدر المنفق ، فحياة المؤمن اليومية يجب أن تكون وفق منهج الله ، ولخدمة دينه، ولقد بين سبحانه ذلك في قوله: [قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين] (الأنعام: ١٩٢)، في حين أن أعمال الكفار مهما كانت فهي إلى بوار ، كما قال سبحانه: [وقدمنا إلى ما عملوا بين عمل فجعلناه هباء منثورا] (الفرقان:٢٣)، "فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصا؛ وعلى الشريعة المرضية؛ فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا، فتكون أبعد من القبول حينئذ" .

ربما لا يتجاوز الإنفاق في مصالح الدنيا واحدة من ثلاث ، إنفاق على النفس والأهل ، وإنفاق على المصالح الخاصة ، وإنفاق على المصالح العامة ، وحولها يدور الحديث .

١- الإنفاق على النفس والأهل والضيف:

ويقصد به ما ينفقه الإنسان على نفسه، وعلى من يعول؛ من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، كما عرفه بعض العلماء (١٨) . ومن الآيات التي تعرضت لهذه المسائل قوله سبحانه: [أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى * لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرًا] (الطلاق: ٦، ٧)، وهي تعالج هنا حالة من حالات التأزم بين الأزواج، تصل إلى حد التلفظ بالكلمة البغيضة. وأعني كلمة الطلاق. وهنا يبرز معنيان يغذيان العلاقات الإنسانية بين الأزواج، ويسموان بها فوق كل نتاج أرضي، أولهما: ما يتبادر إلى الأذهان من أن هذا التكليف بالإنفاق، والاهتمام بالأزواج، يأتي في الحالات غير الطبيعية، فأي سمو ممكن أن تتخيله إذا كانت الأجواء طبيعية؟! وثانيهما: أن المواقف المشحونة قد تدفع بعض ضعاف النفوس إلى أن يتخلى عن واجباته نحو زوجه، وقد جاء هذا صريحا في قوله: (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن)، حينها تزداد الفرقة، وتتسع الهوة بينهما؛ لتبتلع نتاج السنين من الأبناء، فكان التكليف الإلهي بالرعاية والاهتمام مستخدما أرق وأرقى العبارات الإنسانية: السكينة والطمأنينة التي تمنحها كلمة: "أسكنوهن"، إذ إن أول ما يعتري الزوجين كليهما بلا استثناء- عندما تخيم كلمة الطلاق- التوتر والقلق على مصير بيتهما وأبنائهما. ثم تأمل ما تمنحك إياه كلمة: "من وجدكم" لوحدها، فكيف وقد جاءت مسبوقة بكلمة " أسكنوهن "، المتبوعة بقوله "من حيث سكنتم" ؟

ولقد بين الله في هذه الآيات جانبا من جوانب الإنفاق على الأهل والولد عند المنعطفات المصيرية في حياة الأسرة مثل: قضايا النفقة والمسكن – كحقوق للأم- والرضاعة كحقوق للأولاد، ففصل "مسألة الإقامة في البيوت، والإنفاق في فترة العدة على اختلاف مدتها. فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من

سكنى، لا أقل مما هم عليه في سكناهم؛ وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم؛ غير عامدين إلى مضارتهم، سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه ... ثم فصل مسألة الرضاعة، فلم يجعلها واجبا على الأم بلا مقابل، فما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما، فمن حقها أن تنال أجرا على رضاعته، تستعين به على حياتها، وعلى إدرار اللبن للصغير، وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة" (١١٩) .

وإذا كانت آيات سورة الطلاق عالجت وضعا استثنائيا ، جنب الله كثيرا من الأسر الوقوع فيه ، فإن آيات أخر تناولت أوضاعا دائمة تعيشها الأسر المستقرة، فجاء قوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النساء: ٣٤) ، مبينا ما للرجال على النساء من فضل، أحد مبرراته: النفقة التي ينفقها الرجل على أهل بيته؛ " من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه " (١٢٠).

وكما ينفق الإنسان على نفسه ، وأهله، كذلك ينفق على ضيفه ، وتنقل لنا الآيات مشهدا من أروع مشاهد الاهتمام بالضيف، والحفاوة به، وإنفاق الغالي بلا توان وبلا تردد ، وذلك في قوله تعالى: (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون) (الذاريات: ٢٤، ٢٥، ٢٦)، وتجد في هذه الآيات مجموعة من آداب إكرام الضيوف: "رد التحية بأفضل منها، وهذا من حسن الاستقبال، فقد قال الضيوف: "سلاما" بالنصب، ورد إبراهيم عليه السلام تحيتهم قائلا: "سلام" بالرفع ، والرفع أقوى وأثبت من النصب. الترحيب بالضيف ومنحه الأمان الذي ينشده، وهذا واضح من تبادل عبارات السلام بين إبراهيم عليه السلام وضيفه المكرمين، رغم أنه منكر لهم .

إكرام الضيف بغض النظر عن حقيقته ، فكون الضيوف قوما مجهولين بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ، إلا أن عدم معرفته لهم لم يمنعه من تقديم واجب الضيافة، بل قدمه على أكمل وجه كما سنرى. التسلل خفية لإعداد الطعام وجلبه ، حتى لا يحول الضيف دون ذلك. اختيار أفضل الطعام وأطيبه. الإعداد السريع للطعام ، من باب الاهتمام بالضيف ، وحتى لا ينشغل عن مجالسته ومؤانسته ، ونفهم ذلك من قوله تعالى في سورة هود، واصفا المشهد من زاوية أخرى : (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) (هود : ٦٩) ، فالحرص على عدم التواني بي من لفظة " فما لبث " ، وواضح أيضا من لفظة " حنيذ " ، أي : مشوى ، والشواء أسرع إعدادا من الطهي . اشتراك الأسرة جميعا في خدمة الضيف، والقيام بواجباته؛ ألا ترى انطلاق إبراهيم عليه السلام إلى أهله – أي زوجه التي تشاركه هذه المهمة الجليلة، كأي زوجة تدرك حقيقة دورها في الحياة، عونا لزوجها وسندا له في كل مكرمة، حتى إن أحد وجهي تفسير تسمية ضيف إبراهيم عليه السلام بالمكرمين، أي: مكرمين لخدمة إبراهيم عليه السلام وزوجته لهم بأنفسهم . تقريب الطعام للضيف ووضعه بين يديه، زيادة في الحفاوة به، لئلا يكلفه عناء القيام والذهاب إلى موضع الطعام. التلطف في العرض نحو قوله تعالى : "ألا تأكلون"، وذلك في دعوتهم لتناول الطعام ، وهذا لمن يرى أنها قيلت قبل أن تراوده الخيفة منهم" (١٢١) .

٢– الإنفاق على المصالح الخاصة :

يسعى الإنسان لتوفير رزقه وسبل معيشته ، فمنهم من يوفر رزق يوم بيوم، ومنهم من يعد المشاريع الاستثمارية وينفذها ، ليستثمر ما وهبه الله له ، من إمكانات مادية أو بدنية أو ذهنية، ولقد ذكر الله ذلك التفاوت، وبين الحكمة منه في قوله سبحانه : [ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا] (الزخرف: ٣٢) ، ويضع القرآن بين أيدينا المعايير والضوابط التي يجب أن يضعها هؤلاء المستثمرون أمام أعينهم؛ ليكتب الاستثمارهم النماء ، ولهم هدوء

البال، وإلا كان مصير استثمارهم الخسران، وحالهم الندم والخذلان، كحال صاحب الجنتين الذي ضربه الله مثلا لصنف من المستثمرين، اختلطت عليهم المعايير، وتجاوزوا الضوابط، فقال سبحانه مبينا حالهم: [وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها] (الكهف:٤٦)، فمن أراد الإنفاقه على مصالحه النماء، فليحذر الوقوع في طائفة من المحاذير التي بينتها آيات قصة صاحب الجنتين، الواردة في سورة الكهف، وإليك جملة منها: التباهي على الناس بكثرة المال وعزة الأنفار والأعوان :

وكان هذا أول محذور يقع فيه صاحب الجنتين ، عندما بدأت المحاورة بينه وبين صاحبه، فقال سبحانه مخبرا عنهم: [فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا] (الكهف: ٣٤).

وهذه القصة جاءت أساسا تعقيبا على أصحاب الموازين الخاطئة في تقييم الناس وإنزالهم منازلهم، عندما طلبوا ألا يشاركهم الفقراء مجلسهم مع النبي ، فرد عليهم سبحانه: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) (الكهف:٢٨)، " فبعد ذكره سبحانه المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين، وافتخارهم عليهم بأموالهم وإحسانهم، ضرب لهم ولهم مثلا " (١٢٢) . وهذا الرجل صاحب الجنتين واحد من هذه العينة، يسوق الله قصته مثلا؛ ليتعظ الناس. التوهم بأن النعم تدوم .

فقد اغتر الرجل وتصور أن جنته لا تفنى ، فظلم نفسه بهذا التصور الفاسد، فوصفه سبحانه بقوله : [ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا] (الكهف: ٣٥)، فوجود هذا الفهم الخاطئ؛ يجعل صاحبه يستعلي على الناس ويستكبر؛ لأنه لا توجد في ذهنه مساحة تتخيل إمكانية أن تتبدل الأدوار. أما من يحمل الفهم الصحيح ، وتوجد لديه تلك المساحة من تحقق زوال النعم وفق قدر.

الله المكنون ، فلن يتعالى ويتكبر، بل يتواضع ويلاطف ، لأنه لا يستبعد أن يجد نفسه في مثل حالهم يوما . الظن الخاطئ بأن القيامة لن تقوم :

فقد تمادى الرجل في غيه، واستحوذ عليه الشيطان، فلم يكتف بظنه الفاسد الأول، بل أتبعه بظن أشد فسادا من سابقه، كما أخبر سبحانه: [وما أظن الساعة قائمة] (الكهف: ٣٩)، فتأمل كيف أن العيوب تستدعي بعضها بعضا.

قياس الآخرة على الدنيا :

وهنا يبرز مرض خطير ، يتسرب إلى بعض النفوس ، فتخدع أصحابها وتعللها بالأماني ، أو أن الران على قلوبها جعلها لا تميز حقائق الأمور ، فمع أن الرجل أنكر البعث ، إلا أنه يجزم بأنه في حال حدوثه، وهو أمر بالنسبة له مستهجن، سينقلب إلى خير حال؛ ذلك لأنه بني فهمه على تصور خاطئ ، بأن قاس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، وظن أن المنعم في الدنيا منعم في الآخرة، ولسان حاله يردد: " كما أعطاني هذه النعم في الدنيا، فسيعطيني أفضل منه؛ لكرامتي عليه " (١٢٦) ، وهذا ما بينه سبحانه بقوله: (ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) (الكهف: ٣٦)، وما علم المسكين أن الأمر ليس كذلك.

هذه جوانب بينتها الآيات؛ كعوامل أودت بكل مجهودات الرجل المنفق على مصالحه، المتجاوز لكل المحاذير، لكنها لاقت أيضا في المقابل جملة من النصائح على لسان الرجل الثاني ، هي بمثابة عوامل النجاح ودوام المصالح ، لو أخذ بها صاحب الجنتين، لما كان ماله هذا المال من الخسران ، وتقليب اليدين ندما وحسرة ، وإليك بيان بعضها :

استدعاء بواعث التواضع:

ويتحقق ذلك بتذكر الخالق عز وجل المنعم المتفضل، وتذكر أصل هذا الخلق وتطوراته ، من تراب ونطفة مهينة، إلى رجل في هيئة سوية ، فتذكر الأصل يجعلك تطامن (١٢) من عليائك، وتدبر مراحل الخلق يجعلك تدرك عظيم فضل الله عليك ، فتنسب الخير إليه ، وتقر له بالربوبية والوحدانية ، ونفهم ذلك

من قوله سبحانه: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاه لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا) (الكهف: ٣٧، ٣٨).

ذكر الله حال رؤية النعيم :

إذ إنه عامل من عوامل حفظ الخيرات ، فشكر الله كفيل، ليس بحفظ المال والنعمة فقط، بل من أسباب زيادتها ، عهد قطعه الله على نفسه ، ألم تسمع قول الله عز وجل: [وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد] إبراهيم:٧) ، ومن هنا كانت نصيحة الرجل المؤمن لصاحبه: " هلا إذ أعجبتك حين دخلتها – أي الجنتين. ونظرت إليها؛ حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله ". ولقد ذكر سبحانه ذلك الحوار بينهما ، موعظة خالدة عبر العصور، فقال سبحانه: [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله] (الكهف: ٣٩).

الثقة بالله وقدره :

فقد بين الصالح منهما أن الجنان والأنهار ، والأموال والأنفار ، التي يتباهى بها صاحبه، كلها مرهونة بقدر الله، وبكل الثقة بالله وقدره، قال كما أخبر المولى عز وجل: (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا * فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك) (الكهف:٣٩، ٤٠) . ٣- الإنفاق في المصالح العامة :

وأقصد به ما ينفق على مصالح الأمة، فيعود مردوده للجميع ، ومنه ما ينفقه المسئولون؛ لخدمة مواطنيهم والرقي بشأنهم ، وأسوق مثالا من قصة ذي القرنين (١٢٧) لتقريب الصورة . (١٢٥) "طأمن " الرجل ظهره بالهمز على فاعل ويجوز تسهيل الهمزة فيقال "طامن " ومعناه حناه و خفضه. [١]

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني.

الخاتمة : وفى الختام أسال الله العلى العظيم قبول هذا العمل ، خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع :

١- كتاب المصباح المنير.
٢- معجم لغة الفقهاء لقلعه جي .
٣- بصائر زوي التمييز للفيروز أبادي .
٤- مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل .
٥- تهذيب اللغة للأزهري .
٦- المعجم الوسيط .
٧- كتاب الفقه على المذاهب الأربعة تأليف عبدالرحمن محمد عوض الجزيري .
٨-المهذب في فقه الإمام الشافعي، لأبي إسحاق إبراهيم بن على .
٩- الموسوعة الفقهية وزارة الأوقاف .
١٠- النهاية في غريب الحديث والأثر. لأبي السعادات المبارك .
١١- من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور .
١٢- المغني لابن قدامة . تأليف أبى محمد عبدالله بن أحمد .
١٣- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا .
١٤- معجم الفروق اللغوية، أبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري .
١٥- المبسوط لشمس الأئمة أبي بكر محمد بن أبى سهل .
١٦- فتح القدير للشواكاني.
١٧- سبل السلام شرح بلوغ المرام، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني .

* * *